بين الأسف وتبكيت الضمير

يُعتبر الشعور بالإثم في أيامنا هذه مسالة سلبية. انه نو طابع جزائي. ويرى فرويد في هذا الشعور اللاواعي عقبة في وجه الشفاء وبصمة من بصمات الاله المعاقب. غير ان اقتضى هذا في عرفه من شانه ان يتبين صحيحاً ايضاً: فبعض الناس يرفضون كل شعور بالإثم إزاء افعالهم حتى إذا تكشفت هذه الأفعال محاولات إبادة لشعوب بأسرها.

الإقرار بالذنب من ممارسات فيما التقليد اليهودي فالمسيحي. يرتكب المرء خطيئة فيشعر أحياناً بذنبه ويرى الله حتى الشر الخفي أو المحجوب. والخطيئة الأصلية هي التي ارتكبها آدم وحواء اللذين وارتبطت بعصيانهما. غير ان الشعور بالإثم المقترن بالشعور بالخجل والعار نلقاه في سائر التفسيرات القاسية للنصوص الدينية المرتبطة هي أيضاً المقتضيات القانونية.

وان بعض الاشكال التقليدية من الانتحار كالهاراكيري (او السيبوكو) الياباني مرتبطة هي أيضاً بخطايا لا تُغتفر او اخفاقات لا تعوض. وقد يحصل الشعور بالإثم أيضاً في معزل عن اي انتماء ديني. فالاولاد المستغلون او النساء المغتصبات يُعتبرون خطأ مذنبين إزاء ما اصيبوا به. ويذهب بعض علماء النفس إلى ان هؤلاء «مسؤولون وليسوا مذنبين»!.

الثابت انه ما من كلمة من شانها ان تعبّر عن شعور عام واشكاله الخاصة. ليس من اليسير خصوصاً ان نميّز بين مجرّد الأسف وتبكيت الضمير.

يبقى ان نسال، في غمر ما نتخبط فيه من خطايا واخطاء ومغالط في كل المستويات وعلى جميع الأصعدة؟ مَن ذا الذي يحاول ان يعوّد نفسه على الأعمال الحسنة ويجود ويتقنها ثم يثابر على فحص ضميره «المتصل» قبل ان يخلد إلى النوم.

إلامَ يقضي البعض حياتهم في سكر الطيش ومتاهات الضياع؟ هل ينتظرون ان صحوة لهم في البدية ولات ساعة صحو او توبة؟

كبار عندنا تراهم يهيّئون الأحوال ليغدو اللبنانيون شعباً عدمياً سئت دونه كل الأبواب وكان هؤلاء الكبار قد اصطنعوا الشدّة في صغائر الأمور لتعطيل الفكر وإلغاء الاستشرافات والمقاصد الكبرى تمهيداً لهجرات وعمليات توطين، فعلى مَن تراهم يمارسون حكمهم بعد ذلك؟!

العدمية ضجر ونفاد صبر فلنتجنبها!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه